

التربية العقلية في فلسفة ديكارت

دعاء أباد سعدو

معهد الفنون الجميلة – الكاظمية المقدسة

الكلمات المفتاحية: التربية العقلية. فلسفة ديكارت.

الملخص:

إنَّ كل اتجاه ومذهب فلسفي يحوي في داخله بذور تربية خاصة وفق آرائه الفلسفية عن طبيعة الإنسان ومصيره. وبالرغم أن قليل منهم من وضع كتاب خاص للتربية إلا أن الفلاسفة شاءوا أم أبوهم مربيون وتربويين ومثل هذا الشأن شأن ديكارت، فهو لم يخصص كتاب تربوي في منهج تربوي إلا أنه قدّم لنا نظرية تربوية عقلية جديدة من خلال فلسفته العقلية، ولهذا السبب كان بحثنا محاولة لإبراز الأفكار التربوية العقلية والمنهج التربوي لدى ديكارت ولبغية الوصول الى الهدف المنشود سار البحث على النحو التالي:-

المبحث الأول كان عن انتقادات ديكارت للتعليم السائد في عصره، أما المبحث الثاني صبَّ اهتمامنا على هدف ديكارت الفلسفي والتربوي، والمبحث الثالث فدار الحديث عن منهج أو طريقة ديكارت في التربية العقلية. أما المبحث الرابع فجاء عن المبادئ التربوية العقلية عند ديكارت.

المقدمة:

فلسفة ديكارت لها تأثير على حياة الفكر في كل نواحيه السياسية والاجتماعية والعلمية والتربوية وكان منهجاً في الفكر وطريقاً لتحرير الإنسان وفكره مما قيده من قيود حالت بينه وبين التفكير الحر والرأي المستقل.

أما من الناحية التربوية صحيح أن ديكارت لم يتناول في فلسفته موضوع التربية بصورة مباشرة. ولم يخصص كتاب للتربية إلا أنه يمكن القول: إنّه قد عالج سواء كان هذا الأمر عن قصد منه أو غير مقصود منه بعض أهم مسائل التربية العقلية وذلك من خلال آراءه العامة التي ساقها في كتابة مقال عن المنهج، ويرى بعض الباحثين أن القواعد التي وضعها في منهجه

الفلسفي هي في الواقع أساساً للتربية العقلية والتي تهدف الى تدريب العقل الى التفكير الصحيح والحر والمنظم.

بالرغم من أن مؤرخي التربية لم يعتقدوا على ذكر ديكرت أبا الفلسفة الحديثة في تاريخهم، إلا أنه أحدث في مصير التربية أثراً قوياً وفعالاً من خلال مقالته ، مع العلم أنه لم يُنشئ منهجاً تربوياً بالمعنى الصحيح إلا أن آراءه غيرت في وجهة الفكر البشري وأدخل في دراسته حقائق جديدة ومنهجاً دقيقاً واضحاً، أستفاد منه التعليم فائدة كبيرة.

لذلك يمكن القول أن ديكرت قدّم لنا في الواقع نظرية جديدة في التربية العقلية ووضع بعض المبادئ الكبرى في التربية الحديثة دون أن يقصد ذلك، ودون أن يفكر إلا في تغيير التفكير أو الاتجاه الخاطئ المتبع في البحث في الحقيقة العلمية أو في السلوك البشري.

المبحث الاول: انتقادات ديكرت للتعليم السائد في عصره:

ذكر ديكرت في كتابه مقال عن المنهج عن عدم قبوله ورضاه للتعليم المدرسي آنذاك الذي تلقاه على يد اليسوعيين في كلية أو مدرسة "لافليش"، لأنه يشوبه العديد من الأخطاء، فقال: "غُذيتُ بالأداب منذ طفولتي واقتنعت أنه مستطاع بواسطتها تحصيل علم يقيني بكل ما هو نافع في الحياة، فاشتدت رغبتي في تعلمها. ولكني ما كُدت أنتهي من تلك المرحلة من الدراسة، حيث كانت العادة قبول الإنسان عند نهايتها في مرتبة العلماء، حتى غيرت رأبي كل التغيير. ذلك بأنني وجدت نفسي يُحيرني من الشكوك والضلالات، ما بدا لي معه أنني لم أكتسب من اجتهادي في التعليم إلا تبني شيئاً فشيئاً جهالتى"⁽¹⁾.

وأدرك ديكرت أن الدراسة التي قضى فيها مدة ثمانية سنوات في أشهر المدارس الأوروبية آنذاك، إلا أن هذه السنوات لم تفيده في الوصول الى المعرفة اليقينية، وبدء يستعرض في كتابه المذكور العلوم والمواد الدراسية التي تلقاها على يد اليسوعيين وبدء ينتقدها بأنه لم يقتنع بما كانوا يعلموه من العلوم.

وأول أمر أنتقده ديكرت في التعليم هو عدم الإفراط من قراءة الكتب التاريخية والقديمة في المدارس، بالرغم من اعترافه بأهميتها إلا أنه اعتبرها من ابرز الاخطاء التي وقعت في مسار التعليم في عصره لأن الحديث مع ابناء العصور الغابرة، هو أشبه بالرحلة الى بلاد غريبة والإسراف في هذا التطع في كل الأحداث التي وقعت في العصور القديمة سيصبح جاهل في كل ما يقع في زمانه، بالإضافة الى ذلك أن القصص التي تَسُرُّ الحوادث، ستجعل منه إنساناً خيالياً، يتخيّل "ممكناً ما ليس ممكناً من الحوادث، بل وأن أصدق التواريخ إذا لم يغير من قيمة الأشياء ولم يزددها، كي يجعلها أجدر بأن تقرأ، فإنّه على الأقل يكاد يهمل دائماً أدنى الظروف شأنها وأقلها شهرة؛ ومن ثمّ فإنّ ما يبقى لا يبدو كما هو، والذين يتخذون مما

يستنبطونه منها أسوأ لأخلاقهم يكونون عرضةً للوقوع في الغلو الذي وقع فيه فرسان قصصنا، وللتطلع الى ما فوق طاقاتهم⁽²⁾.

كان ديكرت يُقدّر البلاغة والشعر فوصف البلاغة بأنها قوة وجمال والشعر هي رقة وحلاوة روح، إلا أنه أنتقد تدريس البلاغة والشعر لأن يعتبرهما موهبةً إنسانية، لا يكتسبان عن طريق التعلّم والدروس، إنما الأشخاص الذين لديهم الخيال الواسع والرائع، هم يعرفون كيف يعبرون عنها بأحسن المجازات وأحلى الأساليب، هم خيرة الشعراء، وإن كان فن الشعر مجهولاً لديهم⁽³⁾.

يحترم ديكرت العلوم الدينية ويجلبها ويقدرها لكنه أنتقد تدريسها، لأن الوصول الى الجنة هو مطعم العقلاء والجهلاء في نفس الوقت ولا يحتاج الى دروس إنما يحتاج فقط للإيمان المطلق بالله.

وبعد ذلك شكى ديكرت من إهمال تعليم أو تدريس مادة الرياضيات في المدارس آنذاك، وأنه لم يتلقى الشيء الكثير من هذا العلم الذي كان يعجبه، لأنه يثق ببرهنة ووضوح نتائجه، ولكن ديكرت لم يلاحظ فائدتها الحقيقية إلا في الصناعات الميكانيكية، فاهتمامهم بتعليم الرياضيات في ذلك الوقت كان مقتصرًا على تطبيقاتها في الأعمال من مساحة الأرض وهندسة ميادين الحرب وفي المقاييس والموازين المختلفة وفي استعمال الآلات الصناعية⁽⁴⁾.

يعترف ديكرت أن الذين يدرسون الفلسفة ويدرسونها هم خيرة العقلاء، إلا أنه لم يرضى على منهج الفلسفة الكلامية "الفلسفة المدرسية" وهي الفلسفة المشتقة من مذهب أرسطو، ذلك المنهج الذي مازال قائماً في أيام عصره وكان قد تلقاه في وقت طلبه للعلم في مدرسة "لافلش" وهو "عبارة عن محاولة لحل المشكلات الفلسفية والعملية بذكر طائفة من أقوال المؤلفين السابقين سواء كانوا معروفين أو غير معروفين، بدلاً من الإقدام على معالجة المشاكل نفسها ولا شك أن مثل ذلك المنهج كان يتطلب اطلاعاً كثيراً وقسطاً كبيراً من الخرق والمهارة للملائمة بين الآراء المتباينة والمصادر المشتقة، ولكن مثل ذلك المنهج أيضاً ليس من شأنه أن يستحث الناس على حرية الفكر والاستقلال في البحث. ولاحظ الفيلسوف في بادئ الأمر ما كان سائداً في زمانه من اختلاف في النظر وفوضى في الآراء، سواء في الفلسفة أو في العلوم أو في الدين، حتى أننا لا نكاد نجد شيئاً هو من البدهة واليقين بحيث لا يدع مجالاً للمناقسة والجدال⁽⁵⁾.

كما نقد ديكرت العلوم التي تأخذ أصولها من الفلسفة القائمة آنذاك أي الفلسفة المدرسية، بذلك قامت وتأسست هذه العلوم على قواعد ليس فيها من المتانة والقوة، فأصبحت صنعة لتحسين وضعهم المادي والاجتماعي، فأصبحت غاية تدريس الفقه والقوانين لكسب الجاه، اما الطب فيدرس لطلب كسب المال⁽⁶⁾.

صرّح ديكرت في كتابه مقال عن المنهج أنه لم يقصد في إصلاح نفسه أو إصلاح التعليم في بلده أو تعديل النظام المقرر في المواد التي تُدرّس، وهنا يقول عثمان أمين أن هذا التصريح متواضع على فيلسوف كبير ومؤسس للفلسفة العقلية وأنه لم يكن قد قصد الى إصلاح الدولة أو المجتمع أو الدين، فإنه كان طوال حياته حريصاً كل الحرص على أن يصلح "تعليم المدرسين" وأن يقيم فلسفة جديدة تحل محل الفلسفة الوسيطة التي تقوم على الآراء الأرسطية والتي كانت في خدمة الدين⁽⁷⁾.

وفي رأيي ورأي كل شخص يقرأ لديكرت كاتبه المقال بأنه قام بثورة تعليمه من خلال آرائه ضد التعليم السائد وهب بقيام منهج ونظام تعليمي يختلف عن مناهج العصور الوسطى، وكانت أفكاره التي تمسك بها تقوم على الأسس الرياضية والتي "ترتكز كلها على فكرة "الوضوح"، وهي فكرة كان يفتقر إليها تفكير المدرسين الذي كان مغرقاً في الغموض، ولم يكن يكثر بمناقشة المقدمات التي يرتكز عليها مناقشة نقدية"⁽⁸⁾.

وأيضاً سعى ديكرت دائماً الى اكتشاف حقائق جديدة من خلال منهجه الفلسفي، فالاستنباط تكمن أهميته وقيمه عنده في أنه "يتيح توسيع نطاق المعرفة الى آفاق جديدة لم تكن معروفة من قبل، على حين أن المنهج الذي كان سائداً عند المدرسين كان يقتصر على قياس كل حالة تصادفنا بمبدأ عام معروف من قبل، ومن ثمّ فلا مجال فيه للتوسّع أو التجديد"⁽⁹⁾.

كما قرّر ديكرت من واجب الإنسان أن يتخذ منهجاً للبحث ويسير وفقاً له، لأنّ منهج العصور الوسطى لا قيمة وضرورة تذكر له، ولا يفيدنا بشيء بل هو يعيق عمل العقل⁽¹⁰⁾.

وعلى هذا الأساس وضع ديكرت منهج فلسفي و تربوي لتربية عقل الإنسان بشكلٍ منظم هذا من جهة ومن جهة أخرى أن يقوم هذا المنهج الجديد الديكرتي بتغيير هدف التربية والتعليم والدراسة الى توجيه الفكر توجيهاً يمكنه من بناء أحكام متينة حقيقية في كل ما يعرض له من مسائل⁽¹¹⁾.

وسنوضح هدف ديكرت الفلسفي والتربوي ومنهجه ويكونان محور حديثنا في المبحث اللاحق.

المبحث الثاني: هدف ديكرت الفلسفي والتربوي:

تغيرت رؤية الإنسان للعالم الذي يعيش فيه ذلك بفضل التقدم العلمي، فالإنسان قديماً كان خاضعاً للطبيعة وجوداً وفكراً، ولكن الإنسان في العصر الحديث أصبح يسعى جاهداً ليتسلح بالعلم والمعرفة ليكون سيداً على الطبيعة ومالكاً لها، وعلى هذا الأساس قام ديكرت ببناء صرحه الفلسفي على التفكير العقلي السليم القائم على أسس علمية وجعله

غايةً أو هدف منهجه التربوي، لأن العلم هو "ضمان رفاهية الإنسان وسعادته في هذه الدنيا بمد سلطانة على الطبيعة واستخدام قواها في صالحه"⁽¹²⁾.

لذلك جعل ديكرت العلم هو وسيلة فعالة للإنسان لمعرفة العالم والاشياء التي تدور من حوله، والمعرفة والعلم لا يأتيان لأناسٍ عقولهم مغيبة منذ طفولتهم ولم يحصلوا على التربية العقلية السليمة ولا يمكن أن تكون لديهم الرؤية والبصيرة الواسعة والنافعة لأفعالهم الحياتية، كما ليس لديهم القدرة على الانتصار والتجاوز على العقبات والصعوبات والمشاكل في الحياة. ولهذا السبب هبَّ ديكرت من خلال فلسفته العقلية للتغيير الجذري في تفكير الإنسان وتحويل التفكير الفلسفي من "التأمل والنظر المجرد الى العمل والتطبيق، وجعل من التفكير الفلسفي أثر واضح على حياة البشرية وعاوناً لنا في حياتنا، لا على نُدبر أفكارنا وآراءنا تديباً حسناً، بل الأجدران ندبر سلوكنا وفعالنا، وأن نمشي في هذه الحياة مشية الواثق"⁽¹³⁾. وهذا الأمر لا يأتي إلا بتربية عقل الإنسان، على أساس منهج عقلي قائم على قواعد ويعمل على توجيه العقل توجيهاً صحيحاً وهذا الهدف التربوي الديكراتي واضح من خلال كتبه "مقال عن المنهج" و "قواعد لتوجيه الفكر"، كما جعل جل اهتمامه ومحور فلسفة الإنسان ومشاكله والدليل على ذلك هو "مبدأ الكوجيتوا" "أنا أفكر إذن أنا موجود" ويعطينا نتيجة أن الإنسان "أنه موجود من حيث إنه مُفكر. وهذه الحقيقة إنما ندركها بلمحة نفاذة من لمحات الفكر الواعي المنتبه: وهي نظرة ذهنية برهية لحظية أنا أعرف نفسي الا موجوداً عن طريق التفكير فوجود الفكر عندي هو أشدُّ ثبوتاً" من "وجود" الجسم"⁽¹⁴⁾.

كما وصف الإنسان بأنه: "شيء يفكر ويشك ويفهم ويتصوّر وينكر ويريد ويفرض ويتخيل ويشعر"⁽¹⁵⁾، وهذه الصفات لا تأتي إلا عن طريق صفة التفكير التي اعتبرها ديكرت الصفة الأساسية للإنسان.

بالإضافة الى ذلك هنالك هدف تربوي آخر في مذهبه الديكراتي هو التوحيد العقلي بين الناس في نظام منهجي واحد وفي تربية عقلية واحدة مقصودة ليستطيع هذا المنهج ليعلمنا "لا أن نسيطر على الامور المادية وحدها، بل أن ندبر انفعالاتنا وأهوائنا تديباً داخلياً"⁽¹⁶⁾.

وعن طريق النظام المنهجي العقلي سيساهم في تكوين مواطنين ذوي التفكير الحر السليم والجهال من وجهة نظر ديكرت هم من خالفوا النظام المنهجي الموحد بين الناس الذي يقوم على قواعد عقلية صحيحة، "ونهجوا منهجاً مخالفاً له يتفق مع ميولهم الحسية وغرائزهم الحيوانية أو المهيمنة"⁽¹⁷⁾.

ومن خلال ما قلناه يمكن القول أن هدف ديكرت الفلسفي والتربوي واحد في نظام منهجه وهو تربية العقل الإنساني بشكلٍ منظم والعمل على توحيد وجمع العقول البشرية وجهودهم الفكرية وكلمتهم تحت تشريع واحد، وبزعامة نخبة من المفكرين⁽¹⁸⁾.

وهذا المنهج الفلسفي والتربوي الذي هدف إليه ديكارت لتطبيقه في التربية العقلية، هو محور حديثنا في المبحث التالي.

المبحث الثالث: منهج أو طريقة ديكارت في التربية العقلية:

في الواقع أن المنهج الفلسفي الذي وضعه ديكارت بمثابة منهج تربوي وتعليمي وهدفه الحقيقي تدريب العقل على التفكير المنظم للوصول الى الحقيقة والمعرفة الصحيحة، فطالب المعرفة من وجهة نظره لابدأ أن يحدد الطريقة الناجحة لتقوده الى اليقين. وعلى هذا الأساس رجع ديكارت السبب الحقيقي والرئيسي وراء ضعف حال العلم الى "انعدام المنهج المناسب، إذ أن البحث العلمي لا يمكن أن يتم بصورة سليمة إلا بوجود منهج في البداية"⁽¹⁹⁾ لذلك وضع فيلسوفنا منهجه على أساس رياضي ويتألف من أربع قواعد وهي:

القاعدة الأولى: وهي قاعدة اليقين أو البدهة، ومعيار العلم والمعرفة يقوم على هذه القاعدة فالمعرفة السليمة لدى ديكارت هي المعرفة التي تكون واضحة ومتميزة ومعرفة عقلية مؤكدة خالصة خالية من أي شيء محسوس، فرفض قبول أي شيء إلا ما يتمثل أمام عقله في جلاء وتميز أو عدم قبول شيء غير بدهي، فقال: "أأقبل شيئاً ما على أنه حق ما لم أعرف يقيناً"⁽²⁰⁾.

بمعنى على كل شخص أن يتجنب بعناية التهور والسبق الى الحكم قبل النظر وإلا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي واضحاً، ولا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك. وهنا يمكن أن نستخلص من هذه القاعدة الفلسفية العقلية الديكارتية بُعد تربوي قيم ومفيد في حياة الإنسان وهو الابتعاد عن التهور والسرعة في الحكم على الأشياء، فأخطاء الناس تأتي بسبب "التعجيل في إطلاق الأحكام من غير تريث وقبل أن يصل الذهن الى بداهة تامة حول موضوع الحكم"⁽²¹⁾.

وأيضاً تعتبر هذه القاعدة، قاعدة تعليمية في اختيار المواضيع التي تُدرّس الى الطلاب، فأكد ديكارت على المعلم أن يقترح الموضوعات التي يمكن للطالب أن يبحث بها ويستطيع أن يحصل عليها "حديساً في وضوح وبداهة أو ما نستطيع أن نستنتجه في يقين، لا أن نبحت فيما فكّر فيه الآخرون أو فيما خَمّناه نحن أنفسنا. ولا يدرك العلم على غير هذا الوجه"⁽²²⁾.

ويقتصر اهتمام المعلم من وجهة نظر ديكارت على الموضوعات التي تبدو لفكر الطالب واضحة ولها قدرة على اكتساب معرفتها اكتساباً يقيناً، ووضع الرياضيات والهندسة من أهم المواضيع التي تُدرّس للطالب لأن "وهدهما من بين العلوم الخالية الخطأ ومن عدم اليقين، والوحيدان اللذان يعالجان موضوعاً على غاية من الصفاء والبساطة، بحيث لا يقبلان أي افتراض من شأنه أن تدحض التجربة يقينتهما، وهما يتكوانان في جملتهما من سلسلة خلاصات مستنتجة استنتاجاً عقلياً"⁽²³⁾.

أما القاعدة الثانية في منهج ديكرت للتربية العقلية هي التحليل فيقول "أن أقسم كل واحدة من المعضلات أو المشكلات التي سأختبرها الى أجزاء على قدر المستطاع، على قدر ما تدعو الحاجة الى حلها على خير الوجوه"⁽²⁴⁾.

وأيضاً تحدث ديكرت عن هذه القاعدة في موضع آخر وقال: "إذا كان هدفنا أن نفهم مسألة ما فهماً تاماً، فينبغي أن نجزدها من كل تصور غير مُجدٍ، وأن نبسطها تبسيطاً تاماً وان نقسمها بواسطة التعداد الى أجزاء صغيرة قدر الاستطاعة"⁽²⁵⁾.

وبذلك يمكن إرجاع القضايا المركبة والمتشابكة والغامضة بالتدرج الى قضايا أخرى تكون أبسط منها، لأن تحليل الأمور وتقسيم الأشياء تساعدنا لتكون المعرفة في "متناول ناظره وفهمه ومعرفته بديهية مباشرة لا لبس فيها ولا غموض ولا ريب ولا شك فيها على الاطلاق"⁽²⁶⁾.

وهنا يريد ديكرت أن تسير العملية العقلية باتجاه التوضيح بتجزئة المركب الصعب الى أسهل وابسط الامور والاشياء وأن ندرّب ونعلم عقولنا على استعمال التحليل في المسائل المركبة لحلها الى مسائل منبسطة.

وبناءً على ما قلنا يتوجب على المعلم أو المربي استخدام قاعدة أو طريقة التحليل والتبسيط كطريقة في تدريس الطلاب لتساعده على إيصال المعلومات العلمية لعقول طلبته بأبسط صورة ولا يفرض عليهم أي شيء بعيد عن عقولهم وأذهانهم وبذلك تكون هذه القاعدة لها فضل كبير وفائدة تعود على الطلاب في مسار العملية التربوية والعلمية، لأنها تشعرهم "بصحة ما يتلقى إليهم من معلومات ويحسون ذلك من أنفسهم، إحساساً لا يخالجه أدنى شك أو ريب، بحيث يستثير ذلك أذهانهم في التدرج في المعارف"⁽²⁷⁾.

أما القاعدة الثالثة في منهج ديكرت هي بمثابة اختبار عكسي على ما قلناه في القاعدة الثانية، وتنص على "أن أسير بأفكاري بادناً بأبسط الأمور وأسهلها معرفة كي أتدرج قليلاً قليلاً حتى أصل الى معرفة أكثر ترتيباً"⁽²⁸⁾. وعلى ذلك لابد من تربية العقل البشري وتدريبه على تسير أفكاره من البسيط الى المعقد، ويتبع ترتيباً منطقياً في كل خطوة نخطوها في حياتنا بأن الأشياء والامور الأكثر تعقيداً هي بالأصل مرتبة على الاكثر بساطة.

ويهدف ديكرت من هذه القاعدة الفلسفية والتي أسماها قاعدة التأليف بأن يجعل التفكير العقلي للإنسان أن يسير بطريقة منظمة ومرتبة من البسيط الى المعقد والتي كان لها صدى كبير في الاتجاهات التربوية والتعليمية الحديثة واعتبرها طريقة من طرق التدريس الحديث، وأكدوا على المعلمين والمدرسين من اتباع واستخدام قاعدة التأليف في تقديم المعلومة العلمية الى عقل الطالب من البسيط ومن ثم يبدأ بالتدرج شيئاً فشيئاً الى معلومة أصعب وأعقد من المعلومة التي قبلها ومبنية على أساسها.

كما وضع ديكارت في منهجه الفلسفي قاعدة رابعة لكي يسموا في توجيه تفكير العقل توجيهاً سليماً. وهي قاعدة الإحصاء، فيقول: "أن أعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من إنني لم أغفل شيئاً"⁽²⁹⁾.

وفائدتها بأنها تعطي للعقل قدرة على مراجعة الامور والتأكد والتحقق قبل إعطاء أي نتيجة، وأنه لم يسهو أو يغفل شيئاً، فالتحقق يساعدنا على إعطاء الأحكام دون الوقوع في الخطأ.

وهذا مؤشرو بعد تربوي وأخلاقي في غاية الأهمية وهو على أي شخص أن يتحقق من أي عمل قبل الانتهاء منه وايضاً ان يتحقق من أي أمر قبل الحكم عليه.

المبحث الرابع: المبادئ التربوية العقلية عند ديكارت:

تحدثنا سابقاً عن هدف ومنهج ديكارت الفلسفي وأبعاده التربوية في التربية العقلية والتي يمكن اعتبارها الارهاصات الاولى للحديث عن مبحث فلسفي جديد وهو التربية. اما الآن سنسلط الضوء عن المبادئ التربوية العقلية الموجودة في ثنايا فلسفته وهذه المبادئ هي بمثابة الاساس النظري للتربية في العصر الحديث ومن أهم المبادئ التي نادى بها ديكارت هي: تساوي حظوظ الناس في المعرفة والفهم بالفطرة، وقال في هذا الشأن "العقل هو أحسن الاشياء توزعاً بين الناس "بالتساوي"⁽³⁰⁾. والاختلاف في آراء الناس وعقولهم لا ينبع من ان بعض أعدل أو أذكي من البعض الآخر ولكن ينبع من اختلاف طرق استخدام العقل، لذلك لا يكفينا وجود للإنسان عقل، إنما المهم هو أن يحسن استخدام عقله.

عدّ ديكارت العقل أعدل الاشياء بين الناس ليعطيهم الحق ليكونوا سواسية أمام القانون وأمام الدولة والعدالة، والتعليم بالرغم من اختلافهم في الاجناس واللغات والعقائد الدينية والاطوان، إلا أن التفاوت العقلي الذي يظهر بين البشر سببه المنهج أو الطريقة في التربية العقلية وكان محور حديثنا في المبحث السابق، اما السبب الثاني هو الانتباه، فإن منشأة التفاوت يأتي عن طريق الانتباه الذهني أو العقلي، لذلك حثّ ديكارت المعلمين والطلاب وعموم الناس على الانتباه لأن "القادرين على فهم الاشياء وبلوغ الحق هم وحدهم أهل الانتباه الشديد، اولئك الذين يخلصون أذهانهم من علائق الحواس وشواغل المادة"⁽³¹⁾.

إذن في حالة توفر المنهج الصحيح والانتباه الذهني سيصل الإنسان الى معرفة الاشياء دون أن يخشى الزلل بواسطة فعلين هما الحدس والاستنباط، وبهذا فإن جميع الأفعال الذهنية السليمة تأتي عن طريق هذين الفعلين فالحدس هو النور الفطري أو الغريزة العقلية وليس في ذات الإنسان "ملكة أو قوة أخرى لتمييز الخطأ من الصواب واستطاع أن يثق بها أكثر من هذا النور الطبيعي"⁽³²⁾.

أما الاستنباط هو قوة عقلية نفهم أو ندرك حقائق تأتي نتيجة من حقيقة أخرى أبسط منها⁽³³⁾.

وهنا يمكن القول أن ديكارت أراد أن يوجه رسالة تربوية وهي أن كل إنسان وهبه الله عقل، وعليه أن يستخدمه بطريقة صحيحة وليكون له القدرة على التجاوز المستمر للجهد. وأيضاً نادى ديكارت بمبدأ تربوي عقلي آخر وهو مبدأ الحرية والإرادة في التربية، فأى شخص لا يمتلك إرادة قوية في اتخاذ قرارات حياته التي تصدر من عقله إلا إذا كان حراً في استعمال عقلي، وتربى منذ الصغر على استخدام عقله وحرية وإرادته استخداماً صحيحاً، لأن جميع الأخطاء المنسوبة للإنسان ترجع الى العقل وحده بل الى "الإرادة والحكم الحر، ومن أجل هذا كان الخطأ منسوباً الى الإنسان الذي يستطيع أن يستعمل حريته استعمالاً سيئاً، كما لو أُلّف بين أفكار لا ارتباط بينها في الحقيقة والواقع"⁽³⁴⁾.

إذن عندما تتوفر كل الشروط عند الإنسان من حرية وإرادة وعقل ستقع عليه مسؤولية أي فعل خطأ ارتكبه، فالأفعال الخاطئة والصحيحة من الإنسان وحده لأن الله سبحانه وتعالى منحنا عقل والاختيار التي تصدر من الإنسان بسبب سوء التربية له لاستخدام عقله وإرادته وحرية، فقال ديكارت "نظرتُ الى نفسي عن كُتْب وتفحصتُ أخطائي فوجدتُ أن أخطائي تعتمد على اشتراك علتين: قدرتي على المعرفة، وقدرتي على الاختيار أو حرية الحكم، أي قدرتي على الإدراك والإرادة معاً"⁽³⁵⁾.

وهاتان القدرتان لا تأتيان للإنسان إلا بالتربية الذاتية أعتبر ديكارت التربية الذاتية مبدأ تربوي ذو أهمية عظيمة في المسار التربوي ودعا التربويين على تعزيز قدرة الطالب على اكتساب المعرفة عن طريق الجهد الفردي النابع من داخله وليس عن طريق الضغط والإكراه وان نفتح المجال للطالب وإرادته ونحترم حريته في اختيار ما يراه مناسباً من الدروس ومتفقاً مع ميوله واستعداداته العقلية، ولديكارت تأثير كبير في دعم وتأسيس التربية الذاتية والتي اعتبرت من الركائز الأساسية للتربية الحديثة، ولقد شدّد علماء التربية والنفس والبيولوجيين المعاصرين على التربية الذاتية وقالوا بأن: "الإنسان أو الطالب المبدع يكون عادةً من أولئك الذين يعتمدون على أنفسهم لا على تلقي علومهم ومعارفهم من الغير"⁽³⁶⁾.

وبإيجاز يمكن القول: أن الإنسان الذي تربى وتدريب منذ نعومة أظافره على التوجيه الصحيح لاستعمال عقله وحرية وإرادته وعزيمته فإنه قادر على تغيير وتهيئة الطبيعة والعالم من حوله الى الأحسن أو الأفضل لذلك سيصبح إنساناً يستحق الثناء والمدح لأنه منتجٌ للأفكار وليس فقط مكتسب للمعارف كألة وعبر ديكارت عن التربية الذاتية بقوله "أن المرء حين يرى الماكينات تتحرك على صورة كثيرة مختلفة وتدور على أفضل ما يمكن من الدوران، لا يوجه إليها الثناء لأنها إنما تقوم بهذه الحركات عن طريق ما وضع من لواب، في حين يوجه الثناء الى

الصانع الذي صنع هذه الماكينات لما لديه من قدرة وإرادة استطاع بها أن يبدع في تركيبها، كذلك شأنها إذا اخترنا ما هو حق بعد تمييزه من الباطل بفعل إرادتنا نكون أكثر استحقاقاً للثناء مما لو كُنَّا مُجبرين ومرغمين على التصرف، متأثرين بمبدأ غريب عنّا⁽³⁷⁾.

كما يمكن الاستخلاص من كتاب مقال عن المنهج مبدأ تربوي ذو قيمة عالية وهو التربية الموضوعية لأن الإنسان هو كائن اجتماعي وبحكم ذلك لا بد أن يعيش سعيداً في بيئته، وعلى ذلك وضع ديكارط تربية أو أخلاق اجتماعية وهي "أن أطيع قوانين بلادي وعوائدها، مع ثبات في محافظتي على الديانة التي أنعم الله عليّ بأني نشأتُ فيها منذ طفولتي وان احكم نفسي في كل أمر آخر، تبعاً لأكثر الآراء اعتدالاً وأبعدها عن الإفراط ، والتي أجمع على الرضاء بها في العمل، أعقل الذين سأعيش معهم، وتدبير أمري تبعاً للذين أعيش معهم، ولأجل أن أعرف ما هي حقيقة آرائهم"⁽³⁸⁾.

وعلى هذا الأساس يتوجب على المعلم أو المربي أو الوالدين اتباع مع طلبتهم واولادهم تربية متوازنة بين احترام مشاعر وانفعالات وحرية وإرادة الطالب الطبيعية وبين قوانين وعادات وتقاليدها وعقائدها وآراء المجتمع الذي يعيش فيه، فالتربية الصحيحة لدى ديكارط هي التي تعمل على إحلال الانسجام داخل الإنسان والتوازن والاندماج في حياته الاجتماعية دون أن تهمل مشاعره ورغباته مع التأكيد على أهمية التحلي بالأخلاق والفضائل العالية مع الآخرين.

إذن للتربية العقلية دور كبير في جعل الإنسان سعيداً في حياته والكفيلة بذلك، بأن يكون إنساناً حراً في التفكير والإبداع دون أن تتجاوز حريته على حرية الآخرين وان لا تتعارض آراءه مع النظام الإلهي الذي قدّره الله للعالم منذ الأزل.

الخاتمة :

بعد بحثنا في التربية العقلية عند ديكارط استطعنا الخروج بخلاصات تُعد بمثابة خاتمة للبحث وأهمها:

1. قام ديكارط بثورة تعليمية ضد التعليم السائد في عصره من خلال كتابه مقال في المنهج وهب لقبام منهج ونظام تعليمي يختلف عن مناهج العصور الوسطى. فنقد ديكارط التعليم السائد آنذاك وبيّن عدم رضاه للتعليم المدرسي الذي تلقاه على يد اليسوعيين في مدرسة "لافليش"، وادرك أن السنوات التي قضاها في الدراسة لم توصله الى المعرفة اليقينية.
2. كما نقد المنهج الدراسي القائم آنذاك في التعليم وأول نقده كان عن أفراطهم بتدريس مادة التاريخ ونقد دراسة البلاغة والشعر لأن ديكارط يعتبرهما من المواهب

الإنسانية وليس مكتسبة بالتعليم أو الدراسة. كما شكى من إهمال مادة الرياضيات، وأيضاً نقد منهج الفلسفة الكلامية، وآخر انتقادات ديكرت في التعليم صبّت في العلوم التي تستمد أصولها من الفلسفة القائمة (أي الفلسفة المدرسية) لأنها لا تقوم على قواعد متينة. لذلك قام ديكرت بوضع فلسفة جديدة تقوم على التفكير العقلي وهدفه هو التغيير الجذري في تفكير الإنسان وتحويل التفكير الفلسفي من التأمل والنظر المجرد الى العمل والتطبيق.

3. هدف ديكرت من التربية العقلية هو التسلّح بالعلم والمعرفة ليكون الإنسان سيداً على الطبيعة لضمان سعادته ورفاهيته وهذا لا يحصل عليه إلا بتربية العقل البشري تربية عقلية سليمة.

4. اما المنهج الفلسفي الذي وضعه ديكرت يُعدُّ بمثابة منهج تربوي وتعليمي وهدفه تدريب العقل على التفكير المنظم للوصول الى الحقيقة والمعرفة الصحيحة التي تقوم على أساس رياضي علمي متين ويتألف من اربع قواعد وهي قاعدة اليقين او الوضوح وقاعدة التحليل وقاعدة التأليف وقاعدة الإحصاء وكل قاعدة لها مغزى وُبعد تربوي قيّم ومُفيد في حياة الإنسان ولها صدى وتأثير كبير على الاتجاهات التربوية الحديثة.

5. وضع ديكرت في ثنايا كتبه الفلسفية مبادئ تربوية عظيمة غيرت من آراء المفكرين التربويين وأثرت على مسار العملية التربوية بشكلٍ إيجابي ومن أهم المبادئ التي نادى بها هي تساوي حظوظ الناس في المعرفة والفهم في الفطرة والعقل هو أعدل الاشياء توزيعاً بين الناس ليكونوا سواسية اما الدولة والقانون في حقوقهم وواجباتهم وأهمها التعليم والعدالة الاجتماعية بغض النظر عن اختلافهم في اجناسهم ومعتقداتهم الدينية ولغتهم.

6. ربط ديكرت بين الحرية والإرادة ، فالإنسان الذي تربي على حرية الفكر سيمتلك إرادة قوية ويكون مسؤول عن أخطاءه لأن ديكرت نسب الأخطاء التي تصدر من الإنسان لا تأتي فقط من سوء أو ضعف المنهج التربوي للعقل وقلة قدرته على المعرفة بل من فقر قدرته على الحرية والإرادة وأعتبر مبدأ الحرية والإرادة في التربية من هم المبادئ التي نادى بها ديكرت في التربية الحديثة.

7. اعتبر ديكرت التربية الذاتية مبدأً أساسياً في مسار العملية التربوية لأن التربية الذاتية ستسلح الإنسان بالقدرة على المعرفة والإدراك والقدرة على الإرادة والحكم الحر على الاشياء جميعاً، لذلك دعا ديكرت التربويين تعزيز قدرة الطالب على اكتساب المعارف بالجهد الفردي بكل حرية وإرادة.

8. وضع ديكارت بجانب التربية الذاتية مبدأ تربوي عقلي مهم جداً وهو التربية الموضوعية أي التربية او الاخلاق الاجتماعية، وان نوازن في تربية اولادنا وطلابنا بين التربية الذاتية والتربية الموضوعية، وإحلال انسجام في عقلية طلابنا بأنه إنسان كائن اجتماعي وعليه ان يحترم بلده وقوانينها ومجتمع شعبه وعاداتهم وفي نفس الوقت نعزز في نفوسهم بأنهم أحراراً في تفكيرهم ولهم القدرة على الابداع الفكري والفعلي ولهم حرية دون ان تتجاوز على حرية الآخرين.

الهوامش.

- (1) رينيه ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة: محمود محمد الخضيري، مراجعة وقدم لها: د. محمد مصطفى حلبي، دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968، ص112. وينظر: عبد الله عبد الدائم ، التربية عبر التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1973، ص353.
- (2) رينيه ديكارت، مقال عن المنهج، ص115.
- (3) ينظر: المصدر السابق، ص115.
- (4) رينيه ديكارت، مقال عن المنهج، ص116.
- (5) عثمان أمين ، ديكارت، القاهرة، ط6 ، 1969، ص81.
- (6) ينظر: رينيه ديكارت، مقال عن المنهج، ص117.
- (7) عثمان أمين ، ديكارت، القاهرة، ص133.
- (8) د. فؤاد زكريا، آفاق الفلسفة، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1991، ص156.
- (9) د. فؤاد زكريا، المصدر السابق، ص157.
- (10) ينظر: عثمان أمين ، ديكارت، القاهرة، ص134.
- (11) ديكارت، قواعد لتوجيه الفكر، دار سراس للنشر، تونس، 2001، ص27.
- (12) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار العالم العربي، ط1، 2011، ص67.
- (13) جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت الى سارتر، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة: د. فؤاد زكريا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، (ب،ت)، ص5.
- (14) د. عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار المعارف، مصر، 1967، ص25. وينظر: طارق الدليبي، الإنسان فكل وأخلاق، دار غيداء، الأردن، 2017، ص115.
- (15) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012، ص103.
- (16) عثمان أمين، ديكارت، ص117.
- (17) د. مهدي فضل الله، فلسفة ديكارت ومنهجه، دار الطليعة، بيروت، ط3، 1996، ص188.

- (18) ينظر: عثمان أمين، ديكار، ص252.
- (19) فوادسواف تاتاركيفتش، الفلسفة الحديثة من عصر النهضة وحتى التنوير الانجليزي-الفرنسي، ترجمة: محمد عثمان مكي، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، ص97.
- (20) ديكار، مقال عن المنهج، ص130، وأيضاً: وليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمود السيد أحمد، تقديم ومراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير، بيروت، ط1، 2010، ص95.
- (21) مصطفى النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، دار الثقافة، القاهرة، 1988، ص227. وأيضاً: مصطفى النشار، إعلام الفلاسفة حياتهم ومذاهبهم، دار الميسرة، عمان، ط1، 2011، ص204.
- (22) ديكار، قواعد لتوجيه الفكر، ص34.
- (23) ديكار، قواعد لتوجيه الفكر، ص33. وينظر: ديكار تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الاولى، ترجمة: د. كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط4، 1988، ص15.
- (24) ديكار، مقال عن المنهج، ص131.
- (25) ديكار، قواعد لتوجيه الفكر، ص102.
- (26) د. مهدي فضل الله، فلسفة ديكار ومنهجه، ص185.
- (27) د. مهدي فضل الله، فلسفة ديكار ومنهجه، ص184.
- (28) ديكار، مقال عن المنهج، ص131.
- (29) جنفيات روديس لويس، ديكار والعقلانية، ترجمة: عبده الحلو، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط4، 1988، ص24.
- (30) د. عثمان أمين، التأملات في الفلسفة الاولى لديكار، مكتبة انجلو المصرية، القاهرة، ط5، 1974، ص77.
- (31) د. عثمان أمين، ديكار، ص106.
- (32) جنفيات روديس لويس، ديكار والعقلانية، ص65.
- (33) ينظر: محمود بسيوني، فلاسفة غيروا التاريخ، مركز اليا للناشر، القاهرة، ط2، 2016، ص209.
- (34) د. عثمان أمين، ديكار، ص91.
- (35) ديكار، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الاولى، ص43.
- (36) د. مهدي فضل الله، فلسفة ديكار ومنهجه، ص54.
- (37) د. عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، ص45، وينظر ديكار، مراسلات ديكار واليزابيث، اعداد وتقديم وترجمة نوال طه ياسين وابتسام خضرة، دار الرافدين، بيروت ط1، 2018 رسالة في نوفمبر 1945 من ص105 - ص108.
- (38) ديكار، مقال عن المنهج، ص138.

Mental education in Descartes' Philosophy

Douaa Ayad sado

Institute of Fine Arts / Kadhimiya Holy

Douaaayad63@gmail.com

key words: Mental education

Summary:

Any philosophical way or doctrine has within its content pedagogical thinking according to its philosophy about the human being's nature and destiny. Although few of them who wrote an educational book, they all educators. Descartes is the best example; he did not write a specific pedagogical book, but he presented to us a new pedagogical theory through his mental philosophy. This thesis is a try to highlight his educational concepts and pedagogical method. To achieve this aim, the thesis will discuss the following topics.

The first topic is about Descartes' criticism of the dominant educational way in his time. The second topic is to analyse Descartes' main philosophical and pedagogical aim. The third topic is a discussion about his philosophy in mental education. The fourth topic is about the principles of his mental education philosophy.